الاستثمار في خطبة الجمعة

(لغوياً واجتماعياً وثقافياً)

د.عزام عمر الشجراوي

رئيس قسم اللغة العربية/جامعة العلوم التطبيقية

Email: Dr. AZZamalshajrawi@yahoo.com

هاتف: 00962777208115

أو: asu.edu-jo (a_shajrawi)

أولاً: اهمية خطبة الجمعة ومكانتها في الإسلام:

قال تعالى : (يا أيها الذي آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون).(1)

لعل هذه الآية الكريمة تعطينا إضاءة واضحة على أهمية خطبة الجمعة، لأنها ترتبط ارتباطاً عضوياً مباشراً بصلاة يوم الجمعة فلا خطبة بلا صلاة الجمعة ولا صلاة جمعة بلا خطبةٌ. وبذلك عرف العرب ضرباً منظماً من الخطابة الدينة لم يكونوا يعرفونها.(2)

وقد ذكر العلماء أهمية خطبة الجمعة ومكانتها وفرضيتها في الإسلام فروى الإمام البخاري في صحيحه (كتاب الجمعة) عن سلمان الفارسي أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدهن من ذهنه، أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى).(3)

ولأهمية خطبة الجمعة فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول – صلى الله عليه وسلم– قال: (إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة انصت والإمام يخطب فقد لغوت. وقال سلمان رضي الله عنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم– ينصت إذا تكلم الإمام).(4)

وروى مسلم في صحيحه أحاديث كثيرة تبين أهمية خطبة الجمعة، ومكانتها في الإسلام(5)، ولعل هذه الأحاديث الصحيحة لتثبت قطعياً على أهمية خطبة الجمعة في عقيدتنا الإسلامية.

ثانياً: اسباب اهتمام المسلمين بخطبة الجمعة:

اهتم المسلمون بخطبة الجمعة منذ أن صعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أول منبر في الإسلام، وكان لاهتمامهم بها أنه كان يقوم بها الخلفاء الراشدون بعد النبي (ص) ومن بعدهم أئمة الأمة

وقادتها وولاتها، وأن عمادها قول الله وقول رسوله، فخطيب الجمعة ناطق باسم رسول الله (ص) وهل هناك اهتمام بخطبة الجمعة أكبر من هذا، أن يقوم الخطيب مقام رسول الله؟ وذكر الألوسي في روح المعاني: "والمراد بذكر الله في قوله (فاسعوا إلى ذكر الله) الخطبة والصلاة، وثبت فرضيتها بالسنة والإجماع، وقد صرح بها الحنفية بأنها آكد فريضة من الظهر، وبإكفار جاحدها، وهي فرض عين، وقال النووي على شرط الشيخين: الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض".(6)

وأخرج ابن ماجة عن جابر أن رسول الله (ص) خطب فقال :(إن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا في يومي هذا في شهري هذا في عامي هذا إلى يوم القيامة، فمن تركها استخفافاً بها أو جحوداً بها فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له ولا زكاة له ولا حج له ولا صوم له ولا بر له حتى يتوب، فمن تاب تاب الله عليه)(7). وروى أحمد من خبري مسلم وابن حبان أن يوم الجمعة أفضل من يوم عرفة، وفضل كثير من الحنابلة ليلته على ليلة القدر، وفي حديث عن أنس رواه ابن أبي شيبة. الجمعة من أفضل الأيام، وروى أحمد ان يوم الجمعة سيد الأيام. وفي صحيح ابن حبان :"لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة".(8)

إن هذه الأحاديث الشريفة التي تبين لنا أهمية خطبة الجمعة عند المسلمين أملت عليهم الاهتمام بها كل الاهتمام في كل الظروف والأحوال، فهي ثابتة مستمرة إلى يوم الدين في السلم والحرب والأمن والخوف، وهي في العام خمسون جمعة، فخطبة الجمعة، أفضل مدرسة للمسلمين للاستثمار اللغوي والاجتماعي والثقافي لأنها تتيح لهم التعلم والتعليم فتنمي لغتهم العربية وثقافتهم العربية والإسلامية، فهي أفضل استثمار للغة العربية.

وتتيح لهم الإرشاد والتوجيه والدعوة إلى الخير وعمله والتنفير من الشر وعمله، والخطبة كتاب مفتوح في البلاغ والإنذار، وحمل هموم المجتمع والأمة وطرح قضاياها لمعالجتها العلاج الشرعي الشافي. وبناء مجتمع واعٍ مثقف.

ثالثاً : بناء الخطبة وصياغتها وتحضيرها:

قلما ينجح عمل غير مخطط له بإحكام ومعد له إعداداً جيداً، ولهذا فإن بناء الخطبة وصياغتها وتحضيرها يحتاج إلى صبر ومصابرة وإعداد وتحضير ومعاناة لا يقوم بها إلا العلماء المتمكنون من علوم الشريعة والعربية، لأن خطبة الجمعة رسالة سامية تستحق الإعداد بإحكام والعناية والاهتمام، ولا تنجح الخطبة من غير إعداد واهتمام ولو كان الخطيب من أقوى الخطباء، لأن الارتجال لا يقوم به إلا من وهب فصاحة وبلاغة وعلماً واسعاً وقلما ينجح في خطبه المرتجلة، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب كان يعد خطبه

فيقول في قصة بيعة السقيفة: أردت أن أتكلم وكنت قد أعددت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر الصديق، فإذا كان الفاروق يعد كلامه وخطبه فكيف لنا بالآخرين؟

وأما من لا يعد لخطبته الإعداد الذي تحتاجه الخطبة، ويعتبر الخطبة وظيفة يتكسب منها، فإن خطبه تكون عادة ممجوجة، غير مرغوب في سماعها أو الإصغاء إليها. لأنها لم تقدم الجديد المقنع. فعلى الخطيب أن يعي أن من بين المستمعين طبقة متعلمة تعليماً عالياً، ومثقفة ثقافة واسعة، تحسب عليه كل كلمة ينطقها وتسجل عليه أخطاءه وهفواته. فينبغي على الخطيب أن لا يستخف بعقول السامعين وثقافتهم الدينية واللغوية والتاريخية وغير ذلك.

فعلى الخطيب الناجح ان يبني خطبته البناء المحكم، ويصوغها الصياغة المتينة في مبناها وفحواها، وأن يكون موضوع خطبته مراعياً لظروف الناس واهتماماتهم وقضاياهم ومتطلبات عصرهم. وإن حسن اختيار الموضوع مفتاح نجاح الخطبة، يقول الجاحظ:"ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً حتى يقسم أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على اقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات". ولا يضير الخطيب أن يستعين في إعداد خبطته بكتب الخطب أو مواقع الانترنت والصحافة والإعلام، شريطة أن يأخذ منها ما يبني خطبته وما له علاقة بموضوعها، لا أن يأخذ الخطبة جميعها ويلقيها على الناس لأن في ذلك عملاً بعيداً عن الأمانة العلمية، ولن تكون الخطبة مؤثرة في الجمهور لأنها مختلسة.

رابعاً: مضمون الخطبة ومحتواها:

يعتبر مضمون الخطبة ومحتواها، وما تشتمله من أفكار ومعان أمراً بالغ الأهمية في نجاح الخطبة، وبلوغ المآرب والآمال، وإن الخطيب الكيس الفطن الذكي الألمعي الذي يعي أحوال عصره وظروف الناس من حوله، وما الذي يشغل بالهم، ويتمنون أن يحدثهم به الخطيب، فيختار الموضوع المناسب لعصره ويلبي حاجات جمهوره.

وخير تقسيم لمضمون الخطبة ومحتواها أن يشمل على مقدمة للموضوع، ومن ثم موضوع الخطبة الرئيس وأخيراً خاتمة الخطبة. والخطبة الناجحة هي التي يستهلها الخطيب بعبارات تجذب السامعين وتستدعي انتباههم. وتشد قلوبهم وأسماعهم وتستميلها، فيشعر السامع بلهفة لسماع الموضوع الذي مهدت له هذه المقدمة، وقد أكثر نقاد الأدب في الحديث عن أهمية المقدمة فقال أبو هلال العسكري في الصناعتين: "إذا كان الابتداء حسناً بديعاً ومليحاً شيقاً كان داعية للاستماع لما يجيء بعده من الكلام. ولها المعنى يقول

الله عز وجل : (الم) و(حم) و(كهيعص) فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكون ذلك داعية لهم الى الاستماع لما بعده."(10)

ولهذا فللمقدمة أثر فعال في جذب السامعين وانتظارهم بشوق لما سيأتي بعدها من كلام، ويقول الجاحظ :" ويسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد بالبتراء، ويسمون التي لم توشح بالقرآن، وتزين بالصلاة على النبي الشوهاء، وكانوا يستحسنون في خطب الجمعة أي من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع، وقال الهيثم بن عدي في خطبة لعمران بن حطان "هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن".(11)

وينبغي أن تكون المقدمة موحية لموضوع الخطبة. وذات علاقة متينة به، يقول الجاحظ:" وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، ففرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة الصلح. وصدر خطبة العيد وخطبة الجمعة، وخطبة ..... حتى يكون لكل من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير الى مغزاك، وإلى العمود الذي قصدت، والغرض الذي إليه نزعت"(12). وتأمل كيف قال: "مايشير" والإشارة غير التصريح الذي يفقد التشويق تأثيره.

وأما موضوع الخطبة، فهو عمودها الفقري، وجسمها الرئيسي الذي تتكون منه، وعليه معول نجاح الخطبة أو فشلها، فكلما كان الاهتمام بالمقدمة مطلوباً، فإن زيادة الاهتمام ببناء الموضوع أشد طلباً، فينبغي على الخطيب أن يجمع جميع قواه العقلية والوجدانية في بناء موضوع خطبته، لأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.

"ومن الأسس الهامة لعرض الموضوع، والتي لا بد من العناية بها عند الإعداد تدعيمه بالأدلة، والحجج والبراهين والشواهد، وهي عادة ما تكون من الكتاب والسنة، ومن أقوال السلف ومن الحكم والأمثال، وإيراد بعض الوقائع والأحداث التي يستلهم منها الدروس والعبر... ولا بد للخطيب من معرفة واقع الناس، والقرب منهنم، ومعرفة أحوالهم عن كثب، كي يتحدث الخطيب عن هذه الجوانب ببصيرة ودراية واطلاع"(13) لأن البلاغة مطابقة المقال لمقتضى الحال.

الإقناع في الخطبة:

إن مهارة الإقناع والقدرة على إيراد الحجج لهو أمر مهم للخطيب، فليس كل الناس يساقون بالعاطفة، بل إن نار العاطفة سريعاً ما تخبو أو يذهب تأثيرها. لذا فلا بد من العناية بالدليل والحجة والبرهان، ومخاطبة العقول، ولنا في القرآن منهج يمكن أن نحتذيه فما أكثر البراهين العقلية في القضايا الجدلية التي تكون

بموضوع خلاف وإنكار، واليوم يخضع الناس لمؤثرات كثيرة فلا بد للخطيب من التمرس على مهارة الإقناع والتي من أساليبها:

1- ذكر الأدلة من القرآن والسنة وبيان وجهة الاستدلال وتدعيم القول برأي الراسخين من أهل العلم.
2- الاستشهاد بكلام المختصين والمجربين فيما يخص موضوع الخطبة.
3- الأسئلة التفكيرية التي تدعو العقل للتأمل والنظر، كأسئلة الأنبياء لأقوامهم في القرآن.

ويحتاج مضمون الخبطه ومحتواها أن يستعين الخطيب باللغوي والأديب والسياسي والاقتصادي والمهندس والطبيب والاجتماعي والجغرافي والمؤرخ والفقيه والمحدث والمفسر، ولا يعيب الخطيب استشارة أي من هؤلاء والاستعانة به ليكون المضمون صحيحاً يقنع السامعين ويؤثر فيهم.

ويرى ابن القيم أن مضمون الخطبة ينبغي أن يركز على أمور شرعية هامة، فقال: " وكانت خطب النبي (ص) إنما هي تقرير لأصول الإيمان، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبه إيماناً وتوحيداً... ومن تامل خطب النبي (ص) وخطب أصحابه وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الله –جل جلاله– وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلى الله، وذكر آلائه لتي تحببه إلى خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم اليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته ما يحببه إلى خالقه، ويأمرون بطاعته وذكره وشكره وما يحببهم عليه، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم.(14)

وينبغي على الخطيب أن ينوع في مضامين خطبه بما تقتضيه الظروف والأحوال والمقامات، إذ إن البلاغة مطابقة المقال لمقتضى الحال، وأن يراعي المناسبات، وما تواجهه الأمة من أخطار وقضايا. وأن لا يركز الخطيب على موضوع واحد يستهويه، ففي كل جمعة موضوع جديد ليبعد خطبه عن الرتابة التي تؤدي الى سأم المستمعين. ومللهم والإعراض عن الخطبة.

ولا بد للخطيب ان يحرص كل الحرص على دقة مضمون خطبه، وأن يكون علمياً موضوعياً في طرح القضايا، وأن يضع تقوى الله نصب عينيه فيما يعرض في خطبه وعلى الخطيب ان يتقي الله فيما يطرح، ولا يخوض في القضايا بغير تأصيل وعلم وسبق تحر وبحث، وألا يكون طرحه للقضايا المهمة مبنياً على وجهة نظر عارية عن التنقيح أو التحقيق، ومهما بلغ الخطيب من فصاحة وبلاغة فلا يغنيه ذلك عن التأصيل العلمي والرجوع الى المحكمات دون المشتبهات، والى اليقينيات دون الظنيات وإلى ما تثبت منه دون ما ظنه واشتبه عليه. يقول أحد الحكماء وأهل الرأي :" من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل".(15)

وهناك أمر هام جداً في مضمون الخطبة، ينبغي ألا يغفل عنه الخطيب وهو الاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة ويبتعد عن الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة أو المنكرة، وأن لا يبني حكماً شرعياً على حديث ضعيف أو منكر، وأن تكون استشهاداته واستدلالاته قائمة على كتاب الله وسنة نبيه الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين المتفق على صحتها. وحتى يكون مضمون الخطبة صحيحاً ودقيقاً فلا بد أن يعتمد الخطيب على إثباتات علمية وإحصاءات دقيقة قائمة على دراسات علمية وموضوعية، وقد يحتاج الخطيب إلى وثائق تؤيد ما يطرحه في مضمون خطبته.

وأما خاتمة الخطبة فهي الأهم في مضمون الخطبة، لأنها آخر ما يسمعه جمهور المستمعين وتبقى عباراتها تتردد في أسماعهم، وأفكارها تعيش في نفوسهم، وتعتلج في ضمائرهم. فينبغي أن تكون مركزة وعميقة ومقنعة ومؤثرة، حتى تزيد في تأثرهم وإقناعهم، ومما يحسن في ختام الخطبة حتى تكون مؤثرة أن تختم بكلام موجز يشير إلى موضوع الخبطة الرئيس، وبهذا تتآزر المقدمة والخاتمة في ترسيخ المعنى، فالمقدمة تشوق إليه ، والخاتمة تؤكده، ومن صور الخاتمة اللطيفة:

1- آية تدل على الموضوع وتعالج مضمونه، أو حديث نبوي يتناسب مع الموضوع. أو بيت شعر يحمل معنى مناسباً للموضوع.
2- سؤال تقريري، أو إنكاري، أو تعجبي – حسب نوع الموضوع – يجعل النفوس تخرج وهي ما زالت تفكر في الموضوع وتجيله في أذهانها.
3- عبارة لطيفة مركزة يتعب في صياغتها الخطيب تجمع شتات الموضوع، وقد تكون أحياناً جزءاً من المقدمة أو من صلب الموضوع.

خامساً : أسلوب الخطبة:

يقول الجاحظ: " رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ، فذكر المبسوط في موضعه، والمحذوف في موضعه، والموجز والكناية، والوحي باللحظ ودلالة الإشارة".(16)

فيرى الجاحظ أن لغة الخطبة قوام نجاحها وكأنه يدعو إلى الاستثمار في اللغة فكما أن للمضمون أثراً كبيراً في نجاح الخطبة، فإن للأسلوب أثراً مهماً كذلك في نجاحها، لأن تخير اللفظ الرشيق ، وبناء العبارة المعبرة عن المعنى بكل دقة يبني أسلوباً أخاذاً يخلب لب السامعين فإذا كسي المعنى الرائع بقالب لفظي معبر جميل كان الأسلوب مؤثراً في العقول والوجدان، فيترك النفوس مأخوذة بهذا الأسلوب.

ويقول شوقي ضيف: "رأينا الخطابة تزدهر ازدهاراً رائعاً في العصر الأموي وقد صاحب هذا الازدهار عناية واسعة من الخطباء بإحكام خطابتهم عن طريق البيان التام والحجة البالغة والألفاظ المؤنقة، ولا غرابة في ذلك، فإنهم إنما كانوا يريدون بخطبهم إقناع الناس وإسكات الخصوم واستمالة القلوب".(17)

فعلى الخطيب أن ينتقي الألفاظ الجزلة البعيدة عن الغرابة لتعبر عن المعاني المقصودة بشمولية ووضوح من غير تكلف وتوعر وتعقيد. يقول بشر بن المعتمر: "إياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف فكن في ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً."(18)

وقد حذر رسول الله (ص) من التقعر في الكلام، واستخدام الغريب المتكلف من الألفاظ والمعاني المبالغ فيها فقال عليه الصلاة والسلام:" إياي والتشادق" وقال: أبغضكم إلي الثرثارون والمتفيهقون. ويقول الجاحظ بهذا المعنى: "إن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وإن ذلك أكثر ما تستمال به القلوب وتزين به المعاني".(19)

ويقول شوقي ضيف في خطب الرسول – صلى الله عليه وسلم– :" ومن المحقق أن الرسول كان في خطابته –كما كان في حديثه – لا يستعين بخلابة ولا تزويق، وقد برئت ألفاظه من الإغراب والتعقيد والاستكراه، وهي مع ذلك ألفاظ جزلة لها بهاء ورونق، تعمر بها القلوب والصدور، وترتاح إليها الأسماع والأفئدة، فتجتمع لها النفوس المتباينة الأهواء، وتساق اليها بأزمتها، إذ تلتحم بمعانيها وما تدعو إليه من سبل الرشاد. وهي بلا ريب مثل أعلى في البراعة والدقة، ونقصد دقة الحسن ولطف الشعور. ولعل مما يدل على ذلك قوله: "لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي، أي غثت نفسي، فقد كره أن يضيف المسلم الخبث الى نفسه، ونؤمن بأن هذه العناية بحسن منطقه لم تكن نتاج تحبير أو تفكير إنما كانت نتاج ما خوله الله من نعمته في بيانه الرائع، وليس في خطب الرسول سجع، وإن ورد منه شيء فإنما يكون عفو الخاطر، لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم– لم يكن يستخدم السجع بل كان ينفر منه بسبب استخدام الكهان له في الجاهلية، ولذلك صد عنه كما صد عنه خلفاؤه."(20)

وبهذا فق كانت الخطابة في فجر الإسلام وصدره تنهل من منهل هذا الدين الحنيف لتأثر العرب بالقرآن الكريم الذي اتخذوه المثل الأعلى للكلام فكانت خطبهم لا تحمل إلا العذب السهل بمن الالفاظ والأساليب" وكانوا بمقتضى الفصاحة والبلاغة أبعد الناس عن الإغراب والتوعر والتفيهق والتشادق".(21)

وينبغي على الخطباء في عصرنا هذا أن يتخذوا من خطب النبي – صلى الله عليه وسلم– ومن خطب الخلفاء الراشدين والتابعين وخطباء العصر الأموي نبراساً يهتدون بنوره، ومثالاً يحتذى في الأسلوب من حيث اللغة والتراكيب والمعاني فيقول أبو زهرة :"صفت ألفاظ الخطابة وسهلت، ورقت وعذبت، وذلك لتأثرهم بالقرآن الكريم، واقتفائهم طريقه، وسلوكهم سبيله، إذ رأوه المثل الأعلى للكلام فحاكوه.... وإن الأسلوب الخطابي في العصر الإسلامي والأموي بلغ من الإحكام مبلغاً سما عن أن يحاكيه في عصر من عصور اللغة، أو ينهد إليه خطباء أي زمن سابق أو لاحق لذلك العصر".(22)

ويذكر محمد الخضر: ولعل الأساليب البلاغية الراقية التي تزين الكلام كالحذف والتقديم والتأخير والوصل والفصل والإيجار والإطناب كانت سلاح الخطيب في خطبه (23)

وأما في جانب المعاني في الخطبة، فقد سلك الخطباء في العصر الإسلامي والأموي في خطبهم مسلكاً يتفق مع معطيات الحياة الاجتماعية التي وجهت الخطابة وجهة دينية أدبية فكانت المعاني فيها تدعو إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، وإعلاء كلمته، فخطبهم على تعدد موضوعاتها كانت أدلتهم فيها من القرآن الكريم والسنة الشريفة، ومبادئ الإسلام وقيمة وحكم العرب وأمثالهم الاجتماعية ، فيقول الجاحظ :" المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمتصلة في خواطرهم والحادثة في فكرهم ماثلة في خطبهم، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها واخبارهم عنها.. وعلى قدر وضوح الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان انفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي يحققه الخطيب ويدعو اليه ويحث عليه، والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى... لأن مدار الأمر والغاية إنما هو الفهم والإفهام."(24)

ويقول إحسان النص: كانت المعاني في خطبهم ذات أثر عميق في نفوس السامعين لأنها قائمة على دقة الأفكار وتسلسلها المنطقي، وصدقها الوجداني واقتباسها القرآني وتضمينها الحديث النبوي الشريف والحكم والأمثال".(25)

وكانوا كثيراً ما يستشهدون بأبيات من الشعر ذات العلاقة بموضوع خطبتهم، فتقع في الأسماع موقعاً ذا أثر يزيد في الإقناع.

ويقول الدكتور كحالة: "والأسلوب الخطابي المؤثر هو ما اجتمع فيه ثلاث خلال:

الأولى: الوضوح وعدم الغموض، بألفاظ منتقاة في غير إغراب وببيان سهل ممتنع يفهمه الدهماء ولا يجفو عن الأكفاء، والكلمات في الأسلوب الخطابي ينبغي ألا يتعثر اللسان في إبرازها، ولا تتزاحم حروفها، فلا

تتقارب مخارجها ولا تتباعد. وأما السجع فلا يحمل منه إلا ما لم يكن متكلفاً، وكان قصير الفقرات، خفيفاً على السمع، يحرك المشاعر بحسن جرسه والألفاظ فيه تابعة للمعنى، وليس المعنى تابعاً للألفاظ، ذلك أن السجع حلية، والحلية لا تحقق غرضها في الجمال ما لم تكن قليلة غير متكلفة، حسنة التوزيع، تبرز المحاسن ولا تغطيها، وتظهر المعاني ولا تخفيها.

الثانية: مراعاة اللغة العربية ومجانبة اللحن، فينبغي للخطيب أن يعتني عناية تامة باللغة العربية نحوها وصرفها وبيانها ومجازها. فينطق بلغة صحيحة فصيحة، لأن اللحن يفسد المعنى، ويقلب المقصود أحياناً، وإذا فسد المعنى أو التبس ذهب رونق الخطبة وبهاؤها.

الثالثة: أن يشتمل على تحريك المشاعر، وهز الوجدان وإثارة الشعور وإذا فقدت الخطابة هذا العنصر، فإنها تفقد أكبر خصائصها، ولا شك أن الهدف من الخطبة التأثير في السامعين تأثيراً إيجابياً يقودهم الى تصحيح مفهوم، أو مبادرة عمل، أو إقناع برأي... ويكون ذلك بأن يأخذ الخطيب سامعيه بالكلمات الساحرة والصوت العذب المتردد انخفاضاً وارتفاعاً وإثارةً وهدوءاً، وبالتفنن في التعبير والمغايرة في التصوير، بالتقرير مرة، وبالإستفهام مرة أخرى، وبالاستنكار ثالثة، وبالتعجب رابعة والتهكم خامسة، وهكذا، فهذا التنويع في الأسلوب والتصوير من أروع وأبدع طرائق التأثير في الجمهور."(26)

وينبغي للخطيب أن لا يوجه اللوم والتجريح مباشرة، وأن يعمم من غير تخصيص فيقول: ما بال أقوام. أو إننا في هذا الزمان. أو إن بعض الناس. وأن لا يكون خطابه مباشرة إلى المستمعين بكاف الخطاب، لأن هذا الأسلوب ينفر المستمعين، لأن النفس البشرية تكره الأمر والنهي المباشرين، وترفض الاتهام واللوم والتجريح المباشر.

سادساً: مصداقية الخطيب:

مما لا ريب فيه أن لمصداقية الخطيب وشخصيته الأثر الكبير والعامل المهم في نجاح خطبه، فينبغي أن تكون حاله تطابق مقاله ، فلا يخالف عمله قوله، بل أن يكون عمله دليلاً على صدق قوله ، لأنه القدوة لجمهور المستمعين وإن إثبات مصداقيته للجمهور في الحرص على إبراز الحقائق، وصدق القول، فينطق بالحق إرضاء لربه ثم ضميره. وعلى الخطيب أن يلتزم الاعتدال والشفافية والوسطية في خطبه وبخاصة في الإقناع العقلي والنقلي والمنطقي، وفي التأثير الوجداني والعاطفي فلا يطغى جانب على آخر، وأن لا يستخدم أساليب ملتوية لإقناع العوام من الناس بأمر مخالف للشرع والعرف والقانون.

ويقول محمد أبو زهرة: "فعلى الخطيب أن يدرس الجماعة دراسة عميقة متغلغلة وأن يعرف حالها معرفة الخبير الدقيق النظر، وأن يكون كلامه على صورة ملائمة لأخلاقها ومألوفها، وإن كان ما يدعو إليه يتنافى مع طبيعة الجماعة التي يخاطبها اجتهد في التأليف بينهما، فإن سددت خطاه فيما أراد فهو ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب."(27)

يقول ابن القيم: "وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم– إذا خطب احمرت يناه، وعلا صوته، حتى كأنه منذر جيش، وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله"(28). ولهذا فعلى الخطيب أن لا يرى الخطابة أمراً سهلاً، بل عليه أن يعد العدة، وأن يتصف بصفات تؤهله لأن يكون خطيباً ناجحاً مبرزاً، ومن هذه الصفات الضرورية لشخصية الخطيب: طلاقة اللسان وفصاحته، لأن لسان الخطيب أداة بلاغته وأصل فصاحته. وأن يتسم الخطيب بسعة الثقافة والاطلاع وغزارة الثروة اللغوية، وأن يكون على معرفة بأصناف العلوم والمعارف. وأن يكون الخطيب حاضر البديهة قوي الملاحظة، ليكون تأثيره في سامعيه واضحاً، من خلال قراءة ملامح وجوههم في أثناء الخطبة. ولهذا فمن صفات الخطيب الناجح مراعاته لمقتضى حال سامعيه، فيأتي بالأسلوب الذي يوافق حال المخاطبين ونفسياتهم ومفاهيمهم. ولعل صدق العاطفة والوجدان من صفات الخطيب الناجح، ويأتي صدق العاطفة من إيمان الخطيب فيما يقول، واعتقاده بصواب قوله ورأيه فيشعر السامعين بصدق عاطفته، فتوقظ نفوسهم، وتحفز هممهم، وأما إذا كانت عاطفة الخطيب فاترة نحو موضوع خطبته، فلن تؤثر في السامعين، ولن يكون لها الأثر المطلوب. وأن يكون الخطيب خالياً من عيوب النطق كاللثغة والفأفأة والحبسة والعي.

وقد أشار الجاحظ في البيان والتبيين إلى هذه العيوب وغيرها، فذكرها وأفاض فيها وضرب الأمثلة عليها"(29). يرى الجاحظ أن رباطة الجأش من صفات الخطيب، لأنها تجلب الطمأنينة النفسية للخطيب فلا يضطرب ولا يتزعزع ولا يضعف ولا يحتار. ويقول أبو هلال العسكري: "إن الحيرة والدهشة يورثان الحبسة والعي والحصر، وهما سبب الأرتاج والإفحام(30). ومن صفات الخطيب قوة الشخصية وجمال الهيئة والملبس، إذ ان قوة الشخصية هبة من الله يهبها الفرد، فيؤثر في الناس من خلال قوة روحه وسمته وقوة كلماته، ونبرة صوته. وإن جمال الهيئة والملبس يكسبان صاحبهما هيبة أمام الناس، وينبغي على الخطيب أن يرتدي أفضل ما عنده من لباس امتثالاً لقوله تعالى :(يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد).(31)

ولنا في صفات الخطباء في صدر الإسلام المثل الأعلى، فيقول الشيخ أبو زهرة: "اتصف الخطيب الإسلامي بفصاحة وبيان، وجودة نطق وسداد رأي، ومراعاة لمقتضى الحال، وسمت ووقار، وقوة شخصية ونفوذ وقوة نفس، فالخلفاء الراشدون، ومن لهم بهم شبه في الدين والإيمان، فيهم قوة النفس، وقوة الروح بمقادير لم توزن، وحسبك أن تعلم أن قوة نفس أبي بكر، ونفوذه الشخصي، وما وهبه الله من قوة تأثير، هي

التي جمعت الوحدة الإسلامية إذ شارفت التمزق، وهذا ابن الخطاب وعثمان وعلي رضي الله عنهم جميعاً ينابيع اللغة والفصاحة والبلاغة،إذ وجدوا في القرآن الكريم ينبوعاً علمياً لا ينضب، ووجدوا في السنة معيناً فكرياً لا يجف.... والخطيب الإسلامي قريب الى النفوس، غير بعيد عنها، لأن أولئك القادة والصفوة المختارة من اصحاب النبي كانوا يحبون الله ويحبهم، وكانوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، ومن أحبه الله القى عليه محبة الناس، ومن تواضع مع المهابة وقوة النفس أحبه الناس وهابوه، فيكون تأثيره فيهم أشد وقوله أروع... وكان الخطيب الإسلامي لتهذيب الدين له، ومخالطة بشاشة الإيمان لنفسه، حليماً واسع الصدر، لا يضيق صدره بالحق حرجاً، فلا يمتنع عن أخذ الحقيقة من أي قبيل، ولا يجد غضاضة في الرجوع الى الحق إن وقع في الباطل، ومن كان شأنه كذلك اتصل كلامه بالقلوب ودخل على العواطف، لأن الناس يثقون من أنه لا ينطق إلا بما يجيش به صدره، وما يراه الحق، فيصدقونه إذ خلا من شبهة التكلف والرياء، ومن تهمة الملق والنفاق... والقول الجملى: "إن الخطيب الإسلامي قد ادرع بصفات ترفعه إلى أسمى منازل خطباء العالم في كل العصور.(32)

سابعاً:طول الخطبة وقصرها (الإيجاز والإطناب):

اختلف الناس حول طول الخطبة وقصرها، فمنهم من نادى بأن تكون خطبة الجمعة طويلة متكاملة تلم بجميع عناصر الموضوع، وتفي بأركان الخطبة وفرائضها وموجباتها وسننها. ومنهم من يرى بأن تكون الخطبة جامعة مانعة موجزة مختصرة، كي لا يمل السامعون.

وبهذا قال الغزالي:" ولأن استماع الخطبتين واجب ولا يستعمل غريب اللغة ولا يمطط ولا يتغنى، وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة." (33)

ولكن القول الفصل في هذه المسألة ما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم–، وما ورد عن الأئمة والعلماء، فيروي الإمام مسلم، قول الرسول – صلى الله عليه وسلم–: (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه)(34). أي أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– يدعو إلى قصر الخطبة، ودعا إلى ذلك الإمام الشافعي بقوله: "والأفضل ان يكون كلام الخطيب قصراً بليغاً جامعاً(35). وروى مسلم من حديث جابر بن سمرة قال: " كنت أصلي مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فكانت صلاته قصراً، وخطبته قصراً.(36)

ولابن القيم رأي سديد رشيد في هذه المسألة فقال: " كان الرسول – صلى الله عليه وسلم– يقصر في خطبته أحياناً، ويطيلها أحياناً وفق حال الناس وحاجتهم، وكانت العارضة (النازلة) أطول من الراتبة التي هي ديدنه في خطبه(37), وبهذا فإن طول الخطبة أو قصرها يحكمه موضوع الخطبة، والنوازل التي تصيب

الأمة، والحياة العادية التي لا تستلزم طولاً وإطناباً، بل تتطلب قصراً وإيجازاً. ومع أن ابن حزم الأندلسي يقول: "لا تجوز إطالة الخطبة" فهو يرى بعدم جواز اطالة الخطبة وينبغي أن تكون قصيرة موجزة. فإنني أرى أن خير الأمور الوسط، كي لا تكون الخطبة ذات إيجاز مخل أو إطناب ممل. فقصر الخطبة يؤدي إلى اختزالها وسطحيتها، وطولها يؤدي إلى تكرار المعاني وتناولها عدة مواضيع من غير تركيز على الموضوع الرئيس. وكما قيل: "فإن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً. وينبغي على الخطيب أن يراعي أحوال الناس وظروفهم في طول الخطبة، ففيهم العجوز المسن، والمريض العاجز، بآلام الظهر أو المفاصل أو الضغط. أو الربو أو السكري. وفيهم المسافر والتاجر، وعلى الخطيب مراعاة حالة الجو والطقس من حر أو برد أو مطر أو ريح ويقول إيليا حاوي. ويبقى نوع الموضوع وطبيعته الميزان الحقيقي لطول الخطبة والإطناب فيها، أو لقصر الخطبة والإيجاز فيها. فهناك موضوعات تحتاج إلى حجج وإثباتات واستشهادات وأمثلة حية واقعية. وهناك موضوعات لا تتطلب إلا التركيز في بؤرة الحدث فيها من غير تفصيل وإطناب.(38)

ولنا في رسول الله والخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين قدوة ونبراس ينير لنا الطريق في الخطب والخطابة، إذ إنني قرأت خطب الرسول والخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين، فلم أجد خطبة تزيد قراءتها على سبع دقائق، وهذا يدل على بلاغتهم وفصاحتهم، لأن البلاغة في الإيجاز، وكثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً.

ثامناً: التوصيات

بعد هذه الدراسة في الاستثمار في خطبة الجمعة/ لغوياً واجتماعياً وثقافياً، يوصي الباحث بما يأتي:

أولاً: أن تكون مقدمة الخطبة موجزة، ومعبرة وتمهد للموضوع يقول الطاهر بن عاشور: إن براعة الاستهلاك من سمات الخطبة الناجحة وإن الخطيب المفوه هو من يستهل خطبته بما يشد انتباه السامعين ويجعلهم في شوق للمتابعة والسماع.(39)

ثانياً: أن تكون الخطبة واضحة مفهومة. يقول عبد الله الجبرين: إن غموض الألفاظ والمعاني والأفكار والعبارات من الهنات في الخطبة، لأنها تؤدي إلى غير فائدة لدى الجمهور لعدم فهم معاني الخطبة وأفكارها ومراميها. وهذا يؤدي إلى عدم التفاعل مع الخطبة والتأثر بها.(40)

ثالثاً: أن تظهر ثقافة الخطيب في خطبته من خلال الاستشهاد وضرب الأمثلة فيري رامي منير أنه على الخطيب تدعيم أفكاره بشواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأخبار الحكماء والعلماء وعيون الشعر والحكم والأمثال والعبر من غير زيادة مملة ولا قلة مخلة.(41)

رابعاً: أن تتناول خطبة الجمعة موضوعات تلبي حاجات المجتمع وتعالج قضاياه ومشكلاته الملحة ومعالجتها ووضع الحلول الناجحة لها بتفهم ولين وإقناع، من غير تهجم وانتقاد وتجريح لمشاعر السامعين، لأن ، الأمراض الاجتماعية كثيرة، وتحتاج معالجتها الى اهتمام وكياسة ودراية.

خامساً: الاهتمام بالجوانب اللغوية والبلاغية في الخطبة من حيث جزالة الألفاظ وبلاغة التراكيب والجمل والبعد عن لغات العامة، وأن تكون الجمل قصيرة بعيدة عن الضعف والركاكة مما يخل في البناء الفني للخطبة.

سادساً: تنوع الأساليب اللغوية في الخطبة بين الأساليب الإنشائية الخبرية والإكثار من الأساليب الإنشائية من استفهام ونداء وندبة واستغاثة ورجاء وتمني وتعجب.

سابعاً: أن تكون الخطبة سليمة من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية والدلالية، والبعد عن اللحن، لأن هذه الأخطاء تفت في عضد الخطبة وتضعفها، وقد يؤدي الخطأ النحوي أو اللغوي إلى تغيير المعنى المقصود، لأن الإعراب فرع المعنى.

الفهارس

1- الجمعة /9
2- ضيف، شوقي. الفن ومذاهبه في النثر العربي. ص.52 دار المعارف /مصر 1965م.
3- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري . ج2. ص9 . تقديم أحمد محمد شاكر . دار الجيل/ بيروت.

4- المصدر السابق .ج2. ص11.
5- مسلم، الإمام مسلم القشيري. صحيح مسلم –كتاب الجمعة – الأحاديث 47-59.
6- الألوسي، شهاب الدين محمود. روح المعاني ج28 . ص100. دار الفكر /بيروت/ بلا.
7- ابن ماجة، القزويني. مسند ابن ماجة . ج1. ص287. دار إحياء التراث العربي. بيروت/1986م.
8- الألوسي، شهاب الدين محمود. روح المعاني ج28.ص101.
9- الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين. ج1. صم97. دار الفكر للجميع. بيروت 1968م.
10- العسكري، ابو هلال. الصناعتين. ص312. دار الجيل. بيروت/1989م.
11- الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين. ج1. ص 83.
12- المصدر السابق .ج1. ص82.
13- كحالة، محي الدين . المنبر .ص11. عمان/ 2007م.
14- ابن القيم، الجوزية. زادر المعاد في هدي خير العباد. ج1. ص179 تحقيق شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت /1996م.
15- كحالة، محي الدين. المنبر. ص16.
16- الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين. ج1.ص35.
17- ضيف، شوقي. الفن ومذاهبه في النثر العربي ص74.
18- الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين .ج1. ص 95.
19- الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين .ج1. ص14.
20- ضيف، شوقي. الفن ومذاهبه في النثر العربي ص57.
21- أبو زهرة، محمد. الخطابة، أصولها تاريخها . ص215 . دار الفكر العربي القاهرة.
22- أبو زهرة، محمد. الخطابة، أصولها تاريخها . ص217 .
23- الخضر، حسين محمد. الخطابة عند العرب. ص94. دار النوادر. بيروت/ 2010.
24- الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين .ج1. ص55.
25- النص، إحسان. الخطابة العربية في عصرها الذهبي. ص112. دار المعارف/القاهرة/1963.
26- كحالة، محي الدين. المنبر. ص20.
27- ابو زهرة، محمد. الخطابة، أصولها تاريخها . ص44 .
28- ابن القيم الجوزية. زاد المعاد. ج1. ص179.
29- الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين .ج1. ص59-97.
30- العسكري، أبو هلال. الصناعتين. ص217.

31- الأعراف /31.
32- أبو زهرة، محمد. الخطابة، أصولها تاريخها . ص223 .
33- الغزالي، ابو حامد. إحياء علوم الدين. ج1. ص179. دار المعرفة . بيروت 1983م.
34- الإمام مسلم القشيري . صحيح مسلم. كتاب الصلاة. ص214. تحقيق.محمد فؤاد دار الفكر /بيروت /1978.
35- الإمام الشافعي. الأم المجلد الثاني ج4 . ص143. دار المعرفة . بيروت/1973.
36- الإمام مسلم القشيري. صحيح مسلم. كتاب الصالة. ص225.
37- ابن القيم الجوزية . زاد المعاد. ج1. ص176.
38- حاوي ، إيليا. فن الخطابة وتطوره عند العرب. ص226. دار الثقافة والنشر والتوزيع. بيروت/ 1997م.
39- ابن عاشور، محمد الطاهر. الإنشاء والخطابة . ص117. تحقيق ياسر المطيري مكتبة دار المنهاج. الرياض/1433هـ.
40- الجبرين، عبد الله. خطبة الجمعة، مكانتها، إهميتها، أثرها في نفوس المسلمين. مدار الوطن. الرياض/2008.
41- منير ، رامي. الخطابة عند العرب. ص73. دار الفكر العربي للطباعة والنشر بيروت/2005.

ملخص البحث

يعد الاستثمار في خطبة الجمعة/ لغوياً واجتماعياً وثقافياً ذا أهمية بالغة للغة العربية، لما لخطبة الجمعة من مكانة سامية في العقيدة الإسلامية. فلا صلاة جمعة بلا خطبة، ولا خطبة جمعة بلا صلاة. ولهذا فضلت البحث في هذا الموضوع، لما يلاحظ من ضعف شديد لدى خطباء الجمعة في أيامنا في خطبهم، وبخاصة ضعفهم في فنون اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وبيان، وضعف ثروتهم اللغوية، الذي أدى إلى أن تكون خطبهم في معظمها ممجوجة غير مؤثرة أو مقنعة.

تناولت الموضوع من عدة محاور، إذ بدأت البحث بأهمية خطبة الجمعة ومكانتها الدينية واللغوية والاجتماعية، وبناء الخطبة وصياغتها وتحضيرها، ومضمون الخطبة ومحتواها الفكري، وأهمية التأثير والإقناع في الخطبة، وأسلوب الخطبة اللغوي والبلاغي، وشخصية الخطيب ومصداقيته، وقدرته على استمالة قلوب ومشاعر الجمهور. ومدى الإيجاز والإطناب في الخطبة وطولها وقصرها، وأن البلاغة في الإيجاز، لأن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً، والتعمق والتركيز في موضوع الخطبة.

وختمت البحث بتوصيات للخطباء، حبذا أن يأخذوا بها ويطبقوها في خطبهم إذا ما أرادوا أن يكونوا خطباء ناجحين مشهورين، وذيلت البحث بثبت للمصادر والمراجع التي آمل أن يستفيد منها العاملون في الخطابة عامة، وخطبة الجمعة خاصة.